ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

مكانة الإنسان في تصوف الأمير عبد القادر الجزائري

د/ سيد حافظ عبد الحميد
جامعة بني سويف
جمهورية مصر العربية

ملخص البحث

كان تغيير أوضاع الأمة إلى الأحسن, ومعالجة مشكلات الواقع, هو هدف التصوف العملي عند الأمير عبد القادر الجزائري, الذي يتحقق من خلال بناء الأنا عن طريق الوعي والرؤية الجديدة للذات والآخر. البدء يكون بإثبات الأنا تأكيدا للحضور, و الأنا هو الأنا الحضاري وليس فقط الأنا الفرد لأن المشكلة أصبحت مشكلة حضارية, فحضارته مهددة بالموت, وثقافته ومشخصاته مهددة بالضياع, وأرضه مغتصبة, فثلاثية الحضارة(الأرض, والتاريخ, والمشخصات) في خطر. وإثبات الأنا يأتي من خلال استعادة مكانة الإنسان في الواقع العربي والمسلم, والتأكيد على أن الترقي بجانبيه الروحي والمادي هو نتيجة الفعل الإنساني الواعي, والوعي لا يكون إلا من خلال العلم والمعرفة الصحيحة, ونقض المعارف المزيفة.

الكلمات المفتاحية

:الإنسان- الأمير عبد القادر الجزائري- التصوف العملي

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

مقدمة

كان تغيير أوضاع الأمة إلى الأحسن, ومعالجة مشكلات الواقع, هو هدف التصوف العملي عند الأمير عبد القادر الجزائري, الذي يتحقق من خلال بناء الأنا عن طريق الوعي والرؤية الجديدة للذات والآخر. البدء يكون بإثبات الأنا تأكيدا للحضور, والأنا هو الأنا الحضاري وليس فقط الأنا الفرد لأن المشكلة أصبحت مشكلة حضارية, فحضارته مهددة بالموت, وثقافته ومشخصاته مهددة بالضياع, وأرضه مغتصبة, فثلاثية الحضارة(الأرض, والتاريخ, والمشخصات) في خطر. وإثبات الأنا يأتي من خلال استعادة مكانة الإنسان في الواقع العربي والمسلم, والتأكيد على أن الترقي بجانبيه الروحي والمادي هو نتيجة الفعل الإنساني الواعي, والوعي لا يكون إلا من خلال العلم والمعرفة الصحيحة, ونقض المعارف المزيفة.

ويعد الأمير عبد القادر أحد أهم رواد الحركة الإنسانية في العصر الحديث, وأقول العصر لا الفكر, لأن المنحى الإنساني عنده تجلى في مستويات ومقامات مختلفة كالمستوى العسكري, والفكري, والاجتماعي, والتربوي. ليؤكد على مكانة الإنسان في الوجود, ويعيد بناء الأنا معرفيا من خلال الوصل بين العقل والنقل والذوق. بين الله والإنسان والكون, ومؤكدا على أن معرفة الله والوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل لا تأتي إلا من خلال التحقق بأسمائه من (حياة, وعلم, وقدرة, وإرادة وسمع, وبصر, وكلام) في الكون, من خلال العلم والعمل.

حاول الأمير عبد القادر أن يثبت قيمة الإنسان ويؤكدها, فيضعها في قائمة الحضور في الواقع العربي الإسلامي, ويعيد مكانة الإنسان بين الطبيعي والإلهي, وينتقل به من حال الغياب والفناء إلى مقام الحضور والبقاء, وهو الأمر الذي مازال يعانيه الإنسان العربي الآن فهو غائب في قائمة المياه النظيفة, غائب في الرعاية الصحية السليمة, غائب في التعليم الجيد, غائب في الأمن والاستقرار الضروريان للمشاركة في أي نهضة ممكنة.

مكانة الإنسان:

الإنسان([1])عند عبد القادر هو مجموع الجسم والروح. لا الجسم وحده ولا الروح وحده(الجزائري ، 2004، صفحة 585), وهو أشرف المخلوقات وأكملها؛ لأنه الوحيد الذي يجمع بين الإسم الظاهر والباطن, وبين الحقائق الإلهية من حيث الباطن, والحقائق الكونية من حيث الظاهر([2]).وقد وصفه الله بالحكمة, فيعطي على ما ينبغي ويمنع على الوجه الذي ينبغي:" فهو المثل الأعلى للحق. هو مرآة الحق- تعالى- ومرآة العالم, فمن رآه رأى الله, ورأى العالم, ومن عرفه عرف الله وعرف العالم, وبهذا ورد من عرف نفسه عرف ربه, وأقول: من عرف نفسه من حيث الظاهر والباطن

1 - ذكر الإنسان في القرآن 65 مرة, وذكر اسم آدم أي الإنسان الأول 25 مرة, كما يذكر الأإنس18 مرة في مقابل الجن, أناسي 6 مرات بمعنى قوم, وانسي مرة واحدة بمعنى بشر, ويتحدث القرآن عن أصل الإنسان 12 مرة, وعن ضعفه 33 مرة. أنظر: حسن حنفي: دراسات فلسفية, مكتبة الأنجلو المصرية, القاهرة, 1988م, ص:202.

2 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:450. وأيضا موقف, 212, ج1, صص:380- 381. وموقف 239, ج1, صص:430-431,.وموقف 355, ج2, ص:340.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

عرف ربه وعرف العالم, لأن النفس جامعة لحقائق العالم وحقائق الحق-تعالى-, قال تعالى:"سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ"(فصلت أية **53**)"([1]).

وبذلك فقيمة الإنسان الأصيلة تنبع من حقيقته المعرفية, التي هي جوهر التصوف العملي في فكر عبد القادر, والأصل في وجود الإنسان, يقول: "فلذا كان الحق-تعالى-لا يعرف إلا بالنفس الإنسانية, فمعرفته فرع عن معرفتنا بالنفس, إذ هي الدليل عليه...ولا يعرف الله إلا الإنسان الكامل, فإنه من نفسه عرف الحق-تعالى-"([2]).

ومن هذا المنطلق المعرفي نجد عبد القادر يميز بين الإنسان الحقيقي الذي كَمُلت إنسانيته بإرادة المحب العارف, وانتصرت على شهوانيته الحيوانية الغريزية, وهو المضروبة له الأمثال.وبين الإنسان الحيوان ([3]).الإنسان الحقيقي هو الذي آمن بالمثال فمن الله عليه بعلمه هذا المثال, فعبر من خلاله للممثل له, أما الذي يكفر بالمثال فلا يعبر لأنه جهل الممثل له, فاحتقروا المثال, فما عرفوا أن العالم ظل الحق, ولا علموا أن العالم كله اسمه الظاهر, من البعوضة فما فوقها, ومن ثم ما عرفوا أنفسهم([4]).

والإنسان هو أشرف الموجودات من منطلق حقيقته الوجودية, لأنه مَثَل الله الذي ليس له مَثلُ مِثله, فهو مظهر لجميع الحقائق الكونية, له نسبتان, نسبة يدخل بها إلى الحضرة الإلهية, ونسبة يدخل بها إلى العالم, فهو المقابل لجميع الموجودات قديمها وحادثها, وما سوى الإنسان لا يقبل ذلك, فهو الذي يجمع بين القدم والحدوث, فهو منعوت بهما, فلهذا هو رب وعبد, عبد من حيث أنه مخلوق مكلف, وربٌّ من حيث أنه خليفة خُلق على الصورة الإلهية, فهو يلحق بالإله التحاقا معنوياً([5]).

وفي قوله –تعال-"لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ "(التين-1)ما ينهض دليلاً على هذه المكانة التي أُختص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات, فالآية بحسب الأمير عبد القادر يُفهم منها أن الله خلقه على الصورة الإلهية, التي هي للإنسان خاصة, فأبدعه على شكل وهيئة ما جعلها لشيء من المبدعات التي في هذا العالم, ولذلك جاءت صورته(أي الإنسان)جامعة بين اللطيف والكثيف, فهو من اللطائف بلطيفة, وهو من الكثافة بكثيفة, ومن ثم جاءت الصورة الإنسانية أكمل صورة وأفضلها([6]).

---

1 - المرجع نفسه, موقف 248,ج1, ص:453.

2 - المرجع نفسه, موقف 355, ج2, صص:338-339.

3 - المرجع السابق, موقف 248, ج1, ص:448. والإنسان الحيوان هو الذي لم يخرج من الصورة أو القوة إلى الفعل, أنظر في ذلك :الموقف, 178, ج1, صص:322, 323.

4 - المرجع نفسه,, موقف 248, ص:448.

5 - المرجع نفسه, موقف 248, ص:451.وموقف 355, ج2, ص:339.

6 - المرجع السابق, موقف, 342و ج2, ص:280.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

إذًا فتأكيد عبد القادر على أهمية الإنسان يأتي من منطلق أنه محلاً لظهور أسماء الله, يقول:"كما نطلبه لوجود أعياننا يطلبنا لظهور مظاهره, فلا مظهر له إلا نحن, ولا ظهور لنا إلا به, فبه عرفنا أنفسنا وعرفناه, وبنا تحقق عين ما يستحقه الإله...الحق يطلبنا ونطلبه, لأن مرتبة الألوهية لا غنى لها عنا, كما لا غنى لنا عنها...فإنه لا مظهر له يظهر به- تعالى- إلا نحن معاشر الممكنات...وبمعرفة نفوسنا عرفناه, فإنها مقدمة معرفة الرب, ومعرفة الرب نتيجتها, وما عرفنا أنفسنا إلا به, فانظر ما أعجب هذا الأمر, وبنا تحقق ما يستحقه الإله من المعبودية, فإن معبودا بغير عابد وجوداً أو تقديراً غير معقول, وملك من غير مملكة لا يكون...ولولا نحن العابدون المألهون ما ثبتت ألوهته, ولولا نحن المظاهر لوجوده ما كان ظاهراً, ولولا نحن القابلون لفعله وخلقه ما كان فاعلاً خالقاً, فالأمر بيننا وبينه منقسم بنصفين, فلا تثبت ألوهته بدوننا موجودين أو مقدرين, كما انه لا ظهور لوجوده بدون مظهريتنا, ولا فعل له بدون قابليتنا للانفعال, فإن إلهاً بمعنى معبوداً بدون عابد موجود, أو مقدر محال, وفاعلاً بدون محل قابل للانفعال محال؛ فهو –تعالى-, ونحن من هذه الحيثيات المذكورة كالمنتسبين, لا ثبوت للنسبة بأحدهما دون الآخر"([1]). وهو في ذلك كان متابعا شيخه الأكبر محي الدين بن عربي, في قوله بوحدة الوجود, وشارحًا لأبياته التي يقول فيها:

فلولاه لما كنّا ولولا نحن ما كانا([2]).

فعقيدة وحدة الوجود التي اعتنقها ابن عربي كانت تؤمن بالإنسان الكامل, لأنها نظرت إلى البشري في ضوء القيمة التكريمية التي خصه الله بها, واعتباراً لوظيفة الاستخلاف التي أسندها غليه من بين سائر مخلوقاته([3]).

الإنسان في مقابل العالم:

كما أكد الأمير عبد القادر على أهمية الإنسان من حيث أنه الوحيد دون سائر المخلوقات, الذي يصح له أن يتخلق بالأسماء الإلهية, الجلالية, والجمالية على تقابلها وتضادها, ويظهر بها ظهوراً حقيقياً أصلياً([4]) فما وسعته أرضه ولا سمائه ولكن وسعه قلب عبده المؤمن([5]) فقد أكد – أيضا- على أهمية الإنسان وشرفه في مقابل العالم, الذي هو ظل الحق -تعالى- واسمه الظاهر, وتجلياته وظهوراته ومثالاته وتعييناته بحقائق الوهيته([6]) وبالرغم من أن عبد القادر يرى أن النسخة الكونية مقابلة للنسخة الإلهية حرفا حرفا, إلا أنه يؤكد على أن تقابل النسختين لا يعني المساواة في

1 0 المرجع نفسه,, موقف 250, ج2, صص:10-12.وموقف 309, ج2, ص:211.

2 - المرجع نفسه, موقف 250, ج2, ص:11.

3 - سليمان عشراتي, الأمير عبد القادر المفكر, أطفالنا للنشر والتوزيع, ودار القدس العربي للنشر والتوزيع, الجزائر, ط1, 2011م, صص:12-13.

4 -عبد القادر الجزائري, المواقف, موقف 248, ج1, ص:575.

5 - المرجع نفسه, موقف 183, ج1, ص:

6 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:449.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الحقيقة والنسبة, فإن الذهب تقابله مثاقيل الحديد في الصنجة التي يوزن بها, وأين الذهب من الحديد؟ وإن اشتركا في الوزن والمقابلة؟([1]).

والإنسان الكامل عند عبد القادر متقدم بالحقيقة على العالم, متأخر من حيث الصورة والنشأة الطبيعية العنصرية, ولكن العالم مَثلٌ لا يكمل إلا بالإنسان ودخوله في جملته([2]). موضحاً أن العالم كله تفصيل ما أجتمع في الإنسان, لذا سماه ابن عربي بحسب الأمير الإنسان الكبير, وبالعالم الكبير, وسمي الإنسان العالم الصغير, فالله قد خلق الإنسان الكامل له؛ ليظهر به, وخلق العالم للإنسان الكامل ليظهر به, فالعالم مخلوق بواسطة الإنسان وبسببه, وحيث كان العالم مخلوقاً للإنسان والإنسان مخلوقاً لله, كان العالم مخلوقاً لله([3]).

يقول:"كليات التعيينات والمراتب محصورة في ست مراتب, الأولى الغيب المغيب, وهو التعين الأول, الثانية مرتبة الغيب الثاني, الثالثة مرتبة الأرواح, الرابعة مرتبة عالم المثل, الخامسة مرتبة عالم الأجسام, السادسة مرتبة الإنسان, وهو الجامع لجميع المراتب المتقدمة([4]).ويقول:"ما خلق الله –تعالى-مخلوقا- أي مخلوق كان, في العالم العلوي والسفلي, إلا والقصد الثاني منه وجود الإنسان, والسعي في منفعته ومصلحته"([5]).

ولشرف الإنسان وعلو منزلته, فقد حذر الشارع من منع تجلي النفس على الجسم, وأوضح أن من فعل هذا بدون إذن شرعي, أي بغير أن تفسد في الأرض, فكأنما قتل الناس جميعا بما فيهم القاتل, ومن أحياها, أي كان سببا في إبقاء وصول تجلي النفس على الجسم الإنساني, بمعنى دفع الهلاك المتوجه على إنسان, كإطعامه في مسغبة, وسقيه عند عدم الماء, وتخليصه من حيوان مفترس, أو دفع ظالم يريد قتله, فكأنما أحيا الناس جميعاً, فيكون له أجر من أحيا جميع الناس([6]), ولعلو قيمة الإنسان فقد خصه الله بهذا الأمر يقول عبد القادر:"لشرف الإنسان خصه الحق-تعالى- بهذا, وإلا فالقياس أن يكون هذا الحكم عاماً في كل من كان سببا في منع تجلي النفس على جسم من الأجسام بغير إذن شرعي, من جماد ونبات وحيوان وإنسان, إذ لكل منها نفس تليق به"([7]).وهو في ذلك يؤكد على أن كل ما خلق الله مليح بالاصالة, مع رفع درجة بعضهم فوق بعض, وتسخير بعضهم لبعض, وهذا مستند لرفع درجة بعض الأسماء الإلهية على بعض, فإن اسمه"الحي" أرفع درجة من جميع الأسماء, لأنه شرط في الجميع"([8]).

---

1 - المرجع, نفسه,, موقف 248, ج1, ص:455.

2 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص: 452.

3 - المرجع السابق, موقف 248, ج1, ص:451. وموقف 106, ج1, ص:199. وأنظر-أيضا –محي الدين بن عربي : الإنسان الكامل, جمع وتأليف محمود الغراب, مطبعة نضر, دمشق, ط2, 1990, صص:10-11.

4 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:487.

5 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:575.

6 - المرجع نفسه,, موقف:204,ج1, صص:357-358.

7 - المرجع نفسه, موقف:204,ج1, ص:358.

8 - المرجع السابق, موقف:248, ج1, ص:464.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

وعبد القادر إذ يؤكد مكانة الإنسان في مقابل العالم فإن ذلك لا يعني احتقار العالم أو الطبيعة, بل إنه أكد على أن النسخة الكونية مقابلة للنسخة الإلهية حذو القذة بالقذة([1])يقول:"ما من حقيقة كونية كلية أو جزئية إلا ولها حقيقة إلهية تقابلها هي مستندها ومحتدها, والحقيقة الكونية هي تعينها وظهورها, ومثال لها وفرعها فالنسخة الكونية متقابلة للنسخة الإلهية حرفا حرفا"([2]) كما أنه في ممارسته العملية وفي شعره أراد أن يبني علاقة حميمة بينه وبين الطبيعة بصفتها البعد الذي تتجسد فيه قدرة الله, وتجلياته الجمالية وجلاله وقدرته في التنظيم والإحكام([3]).ليؤكد مع المتصوفة الكبار مثل عبد القادر الجيلاني ومحي الدين بن عربي وأبو الحسن الشازلي أن هدف الإنسان تجاه العالم هو تفهم هذه النص الكوني, بأن يحبه, ويحيط ببدائعه وعجائبه وأن يكشف عن كنوزه, وطاقاته؛ ليزداد علماً وقوة. وأن فهم هذا الكون ضرورة علمية ونفسية ودينية ([4]) ولذلك نجده في موقفه من الجسد يؤكد أن التصفية والتزكية ليس معناها احتقار الجسد وتعذيبه وإنما تهذيبه بالطاعة وما يفيده, يقول:"وليس المراد من التزكية إعدام الصفات الطبيعية ومحوها رأسا كما يتوهم, فإنه محال إذ طينة الإنسان معجونة بها مركبة معها, وإنما المراد عزل الطبيعة عن الإستبداد ومنعها عن الإسترسال في الأمور السفلية الشهوانية, ويردها إلى حكم الشرع والعقل, ولهذا لما كانت الملائكة الكرام لا شهوة لهم لم يجعل الله –تعالى-لهم عقولاً, فكل من لا شهوة له لا عقل له, فإذا تزكى الإنسان كانت صفاته كلها وأفعاله محمودة, لأنه يصرفها فيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي بالقدر الذي ينبغي"([5]). أي أن يتحقق بمفهوم الحكمة بأن يعطي كل ذي حق حقه.

الإنسان الكامل والمسؤلية الحضارية.

إن تأكيد عبد القادر على مكانة الإنسان هو تأكيد على مكانة الفرد العادي, لأنه وإن لم يكن كاملاً بالفعل فهو بالقوة يحوي إمكانية الوصول إلى هذه المرتبة, وما منعه من السلوك إليها والتحقق بها إلا الجهل بنفسه. يقول عبد القادر:"الحقيقة الإنسانية موجودة في الجميع, وكل إنسان, بما هو إنسان, قابل لرتبة الإنسان الكامل, ولكنهم متفاوتون في ظهور أثار الإنسانية"([6]).

ومن ثم فالإنسان هو صاحب المكانة الكبيرة والمهمة, عليه لكي يحقق إنسانيته ويحقق الخلافة –التي هي الهدف من وجوده - أن يمنع نفسه من الجهل وقلة الدين وحب الفساد, وأن يسلك سلوك المجتهدين الذين اجتهدوا أن يكونوا

1 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:464.

2 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:455.

3 - محمد بشير بويجرة:جدلية العبقرية والمعاصرة عند صاحب الإمارة قراءة في مسار الأمير عبد القادر, منشورات دار القدس العربي, الجزائر, 2010م, ص:272.

4 - طه عبد الباقي سرور, من أعلام التصوف الإسلامي, مكتبة نهضة مصر ومطبعتها, القاهرة, د.ت, ص:65.

5 - عبد القادر الجزائري, المواقف, موقف 338.

6 - المرجع نفسه, موقف:115, ص:197.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرقة والرحمة والعدل والمعروف كما يقول أبو حيان التوحيدي([1]).لأن الحقيقة الإنسانية وإن كانت سارية في كل إنسان([2]) إلا أنه يجب كما يرى عبد القادر أن نفرّق بين الإنسان العارف الواعي والإنسان الحيوان([3]), فالإنسان الكامل هو الإنسان العارف الواعي الذي يجمع بين النظر والعمل, بين الرب والعبد, المتحلي بالعقل, المتسيج بالشرع, المتحقق بالذوق, هذا الإنسان الكامل عند عبد القادر هو في نفسه العبد الذليل, الذي لا تشوب عبوديته ربوبية بوجه ولا حال, ولذلك يرى الأمير أن أن الإنسان الكامل ملزوم بأن لا يبدي خوارقه, ولا يظهر ما خُص به, فذلك من تمام كماله, أما من يبدي الخوارق والقدرات فهو الإنسان الناقص الكذاب([4]).

وهكذا أراد عبد القادر أن يعيد في واقعة نموذج الإنسان الكامل المعبر عن البناء والتقدم والخلاص من الجهل, والفقر, والظلم, واليأس من الإصلاح, والتخلص من الاستعمار, وهو في نفس الوقت أراد نقض فكرة الإنسان الناقص, التي سيطرت على العقل والواقع العربي من خلال الحديث عن المسيخ الدجال([5]), ونهاية العالم, التي كانت الشغل الشاغل للعامة أراد القضاء على السحر والدجل والشعوذة, ليحل العقل ويزول التقليد. مؤكداً أن بلوغ مرتبة الإنسان الولي ليست بعيدة عن الفرد العادي, إذا ما خرج من الجهل ودخل في العلم بصدق التوكل على الله, والانحياش, ظاهرًا وباطنًا إليه, وأصبح واعيًا فاعلاً نافعًا, يأخذ بالأسباب, ويتقيد بالقرآن والسنة ويعمل بهما, أما إذا قصد بالعمل التي معناها ظهور الخوارق والكرامات وانتشار الصيت وإقبال الخلق ؛ فهذا لا يشك أحد أنه علة، بل شرك(6). متفقا مع ابن عطاء الله السكندري الذي يقول: "لا تصحب من لا ينهضك حاله, ولا يدلك على الله مقاله"([7]).

أراد الأمير عبد القادر أن يعيد مكانة الإنسان, ليؤكد على أهمية الفعل الإنساني في تحقيق الوجود المتمثل في عمارة الكون من خلال الوعي والمعرفة .فيكون خليقا بتحقيق الخلافة في الأرض, والحياة الدنيا([8]).عن طريق البقاء وليس الفناء. فذهب مع ابن عربي إلى أن زمان الفناء الحاصل في الدنيا يفوت مقاماً من المقامات في الآخرة, لأن الفاني يفنى عن عبوديته التي هي معرفة الله وعمارة الكون, وكل أمر يخرج العبد عن أصله وحقيقته فما هو من الشرف بمكان, فالدنيا ليست بموطن الفناء, وإنما دار عمل وتكليف ومجاهدة([9])

1 -أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة, ج1, صححه وضبطه: أحمد أمين, وأحمد الزين, دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع, د.ت, ص:18.

2 - عبد القادر الجزائري: المواقف, موقف:355, ج2, ص:339.

3 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:448.

4 - المرجع السابق, موقف 248, ج1, ص:454.

5 - المرجع نفسه, موقف 248, ج1, ص:454.

6 -المرجع نفسه,, موقف :67, ج1, ص:125.

7 - أحمد بن محمد بن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم, تقديم ومراجعة, محمد أحمد حسب الله, دار المعارف, القاهرة, 1983م, ص:128.

8 -عبد القادر الجزائري: المواقف, موقف 143, ج1, ص:269.

9 - المرجع السابق, موقف 355, ج2, ص:351.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

إن عبد القادر يؤكد على الفاعلية والمسئولية الإنسانية, فالإنسان مسئول عن استعداده وما يكون عليه, "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ"(الإسراء:13) فكتاب كل إنسان نفسه, فلا يخف الإنسان إلا نفسه, فالإنسان هو الذي يحكم على نفسه, وما سبق العلم إلا بما هو عليه من الصورة التي ظهر بها وليس تقدير عليه ما سيقع([1]) وفي ذلك يقول:"والحق -تعالى-إنما يعطي الوجود للمستعد الطالب للوجود باستعداده, فهو الجواد الحكيم لا يمنع مستعدا طالباً, لا يعطي غير مستعدا طالبا"([2]).متابعًا أستاذه محي الدين بن عربي قائلاً:" وأي دليل أقوى على نسبة الفعل إلى العبد, وإضافته إليه, والتجلي فيه, إذا كان من صفته كون الحق خلقه على صورته, فلو جرد الفعل عنه لما صح أن يكون على صورته, ولما قبل التخلق بالأسماء, وقد صح التخلق بالأسماء"([3]).

فالمشروع الصوفي عند الأمير يدعم معركة الإنسان ضد كل القوى التي تعمل على تغييبه, واستلابه لإسكات إبداعه وتفرده وتميزه وذاتيته, ضد كل القوى التي تعمل على تشييئه, وامتلاكه, وتغريبه وإزاحته من مركزية الوجود لمصلحة الآلة والمادة والاستهلاك(4) أو لمصلحة الجمود والانغلاق, فالتصوف العملي الراشد عند عبد القادر الجزائري يحقق إنسانية الإنسان ويصر على الإيمان به وبأنه عمد الوجود وبانيه، وأنه القيمة الكبرى والثروة الحقيقية في الكون، ولولاه يندرج الوجود في العدم. وهو الخليفة الذي سُخرت له السماوات والأرض ليبدع ويبتكر ويتفوق, فالإيمان بالإنسان جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله([5]).والإنسان كما يرى محي الدين بن عربي هو العالم الأصغر الذي انعكست في مرآة وجوده كل كمالات العالم الأكبر ومفرداته"([6]).

الإنسان والمكون التراثي:

استيعاب التراث ونقده وتنقيته من أهم الأسس التي قام عليها برنامج الاتجاه المحافظ المستنير من رواد النهضة العربية والإسلامية الحديثة مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وبطرس البستاني, وأحمد فارس الشدياق, ومحمد عبده, وهكذا كان الحال عند الأمير عبد القادر الذي استوعب هذا التراث قراءة وتعليمًا وتدريسًا, فالمكانة المهمة للإنسان عنده ترجع إلى القرآن الكريم, الذي هو أحد أسس التصوف العملي عنده, فالإنسان هو الوحيد من بين المخلوقات من عُلّقت عليه أهمية عظيمة في القرآن, حتى يمكن القول بأن الإنسان بطبيعته وسلوكه ونفسيته وواجباته ومصيره, ينال اهتماماً مركزياً في الفكر القرآني بالقدر الذي تناله مسألة الله ذاته. مما يجعله يشكل القطب الرئيسي

1 -المرجع نفسه, موقف 299, ج2, صص:1840185.

2 - المرجع نفسه,, موقف, 300, ج2, ص:186.وموقف 303, ج2, صص:189-190.وموقف, 311,ج2, ص:216.

3 - المرجع نفسه, موقف:309, ج2, ص:213.

4 - سعاد الحكيم:التصوف يحقق التقارب بين المذاهب, مجلة العربي , الكويت, العدد 579, فبراير 2007م, محرم 1428هـ ص:72.

5 - طه عبد الباقي سرور: من أعلام الصوفية في الإسلام, صص:6-7.

6 - محي الدين بن عربي, فصوص الحكم, تحقيق أبو العلا عفيفي, دار إحياء الكتل العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه, القاهرة, 1946م. . صص: 48-55.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الثاني في مقابل القطب الأساس وهو مفهوم الله([1]) فالإنسان كما جاء في القرآن هو المختص بالتكريم على كثير من خلقه"ولقدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"(الإسراء: 70)إذ هيأ له الله أسباب نيل المراتب العالية, والتنقل في المقامات بخلاف باقي المخلوقات([2]) وخلقه في أحسن تقويم, وكرمه في البر والبحر, وخلقه على صورته, ومثاله, وسجدت له الملائكة, وأعطى له الوحي وأصبح كليماً لله, طرفا معه في الحوار, حرا مسئولاً, ساعيا في الدنيا, كادحا فيها, بصيرا واعيا بنفسه([3]), وجعله خليفة في الأرض([4]), التي هي الأمانة, وذلك ليبين فضل الإنسان وشرفه, مقارنة بباقي المخلوقات([5])والخلافة معناها كما يقول عبد القادر:"التحقق بجميع الأسماء الإلهية, فهو الإله في صورة آدمية, من غير حلول ولا اتحاد, ولا امتزاج, فأنا بريء من ذلك كله"([6]).

ترجع مكانة الإنسان –أيضا- السنة النبوية, فذهب عبد القادر الجزائري مستندا إلى السنة النبوية, ومتفقا في ذلك مع محي الدين بن عربي إلى أن الأرواح الإنسانية متساوية في أصلها لأنها منفوخة من الروح المضاف إلى الله بطريق التشريف, ولما كان الأصل شريف قام رسول الله لجنازة اليهودي, ولما قيل له أنها جنازة يهودي!! قال أو ليست نفساً, وهذا هو ما يتمسك به الصوفية فيما يقول عبد القادر([7]).

كما أننا نجد الإنسان حاضرًا في كل علم من العلوم الإسلامية, وماثلاً في كل مذهب, وإن كان مغلفا بمئات من الأغلفة اللغوية والعقائدية([8]).كان الإنسان حاضرا وبقوة في التصوف, ولا شك أن عبد القادر تأثر بأستاذه الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الذي بلور مفهوم الإنسان الكامل في الإسلام ([9])ومعتبراً التصورات الفردية والإجتماعية للإنسان التي نجدها عند أبي نصر الفارابي, في آراء أهل المدينة الفاضلة([10]) وإخوان الصفا في رسالة جامعة الجامعة,([11]) وكذلك تأثر بعبد الكريم الجيلي صاحب كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر, والذي أكد معه

1 - توشيهيكو إيزوتسو : الله والإنسان في القرآن(علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم), ترجمة وتقديم : هلال محمد الجهاد, المنظمة العربية للترجمة – لبنان, 2007م, ص:128.

2 - عبد القادر الجزائري: المواقف: موقف 350. ج2, ص: 314.و - أحمد الجزار: الله والإنسان عند الأمير عبد القادر الجزائري, منشأة المعارف, الإسكندرية, 1999م, ص:56.

3 - حسن حنفي:دراسات فلسفية, ص:202.

4 - حسن الملطاوي, الله والإنسان في فلسفة أبو حيان التوحيدي, مكتبة مدبولي, القاهرة, 1989م, ص: 219.

5 - عبد القادر الجزائري: المواقف, موقف 178, ج1, ص:322.

6 - المرجع نفسه,, موقف 178, ج1, ص:322.

7 - المرجع نفسه, موقف 298, ج2, صص:148-149.وصص:155-156.,وصص:160-161.

8 - حسن حنفي :دراسات إسلامية, مكتبة الانجلو المصرية, القاهرة, 1981م , ص:394.

9 - بهادي منير:التجربة الوجودية في الخطاب الصوفي مقاربة تأويلية لفلسفة الخلاص في الإسلام, رسالة دكتوراه, جامعة وهران, قسم الفلسفة, 2006-2007م. , ص:226.

10 - أبو نصر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة, تحقيق, تقديم وتحقيق:ألبير نصري نادر, دار المشرق(المطبعة الكاثوليلكية) بيروت, 1986م.

11 - إخوان الصفا:رسالة جامعة الجامعة, تحقيق وتقديم عارف تامر, منشورات دار مكتبة الحياة, بيروت, ط2, د-ت, ص:226.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

أن كمال الإنسان في العلم بالله([1]).وفي كتابه(مراتب الوجود) والذي جعل الإنسان في المرتبة الأربعين, ورأى أنه بمرتبة الإنسان تمت المراتب, وكمل العالم, وهو أعلى الموجودات مرتبة في الكمالات وليس لغيره ذلك([2])وفي هذا السياق يؤكد عبد القادر أن الوصول إلى الله معناه العلم به لا غير يقول:"المواصلة بالحق-تعالى-مواصلة علم لا غير ذلك, مما عساه يتوهَّم, فإن الوصول إلى الحق-تعالى-هو الوصول إلى العلم به"([3]).

أخيرًا فقد أراد عبد القادر أن يثبت قيمة الإنسان ويؤكدها, فيضعها في قائمة الحضور في الواقع العربي المسلم, وبذلك يعيد التصوف العملي مكانة الإنسان بين الطبيعي والإلهي, ويعيده من حال الغياب والفناء, إلى مقام الحضور والبقاء, وهو بذلك يثبت الأنا الحضارية لأنه حقيق بمن كانت أصوله وثوابته تؤكد قيمة الإنسان وخلافته, أن يكون منواطاً بتحقيق هذه الخلافة وإثباتها عمليا على أرض الواقع, متأسيا بالنبي الخاتم والإنسان الكامل, يقول:"فمن نظر إلى باطن العارف وجده جبلا لا يتحرك, ثابتا لا يتدكدك, ليس له نظر إلى الأسباب ولا عبرة له بها, ومن نظر إلى ظاهره رآه كالطائر من غصن إلى غصن, ومن شجرة إلى شجرة, فهذا سيد العارفين وإمام المتوكلين(صلعم)جند الأجناد وظاهر بين درعين, وحفر الخندق, وأدخر قوت سنة, وتداوى واحتجم, واكتوى, وما ترك سببا إلا فعله"([4]).

ولكن لتحقيق هذه المهمة لا بد من تمزيق الكثير من الأغلفة والأستار ونزع القشور, ليحضر الإنسان الذي هو محور كل دين وشريعة كما هو الحال في أصولنا وثوابتنا العقدية, ومشخصاتنا الحضارية, والحضور والبقاء يتطلب الوعي القائم على المعرفة, والعلم, لكي تكون الأنا حقيقة بالحضور الفاعل في الحضارة الإنسانية.

قائمة المصادروالمراجع:

1. أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة, ج1, صححه وضبطه: أحمد أمين, وأحمد الزين, دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع, د.ت.
2. أبو نصر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة, تحقيق, تقديم وتحقيق:ألبير نصري نادر, دار المشرق(المطبعة الكاثوليلكية) بيروت, 1986م.
3. أحمد الجزار: الله والإنسان عند الأمير عبد القادر الجزائري, منشأة المعارف, الإسكندرية, 1999م.

1 - عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي:الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل, تحقيق:أبو عبد الرحمن صلاح عويضة, منشورات محمد علي بيضون, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1, 1997م, ص:7.

2 - عبد الكريم الجيلي:مراتب الوجود وحقيقة كل موجود, أعتني به :عاصم إبراهيم الكيالي, د.ن, دت. صص:61-62.

3 -عبد القادر الجزائري: المواقف, موقف, 250, ج2, ص:9.

4 - المرجع السابق, موقف:165, ج1, ص:303.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

4. أحمد بن محمد بن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم, تقديم ومراجعة, محمد أحمد حسب الله, دار المعارف, القاهرة, 1983م.
5. إخوان الصفا:رسالة جامعة الجامعة, تحقيق وتقديم عارف تامر, منشورات دار مكتبة الحياة, بيروت, ط2, د-ت.
6. بهادي منير:التجربة الوجودية في الخطاب الصوفي مقاربة تأويلية لفلسفة الخلاص في الإسلام, رسالة دكتوراه, جامعة وهران, قسم الفلسفة, 2006-2007م.
7. توشيهيكو إيزوتسو : الله والإنسان في القرآن(علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم), ترجمة وتقديم : هلال محمد الجهاد, المنظمة العربية للترجمة – لبنان, 2007م.